

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 11 (2011) : 13 - 28
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

– دلائل الإعجاز –
من البنيوية ... إلى التداولية

عائشة برارات
قسم اللغة العربية وآدابها المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

نحاول في هذا المقال كشف أوجه المقاربة بين اللسانيات الغربية والتراث العربي، وذلك من خلال دراسة كتاب "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني؛ وهذا الكشف لا يعني إجراء عملية إسقاطية دون مراعاة أيّ خصوصية، ولا شكّ أنّ هذه المناهج اللسانية المختلفة عُرفت في التراث اللغوي العربي بشكل أو بآخر، من هنا كان حرصنا على بيان مدى استثمار المفاهيم التي جاءت بها اللسانيات في التراث العربي، فهل يمكن وصف آراء عبد القاهر الجرجاني باللسانية؟ وبأنه لساني صاحب نظرية؟.

مرّ الدرس اللساني بمراحل متباينة؛ فمن بنيوية سوسير (Saussure) إلى توليدية تحويلية تشومسكي (Chomsky)، وتداولية أوستين (Austin) وسيرل (Searle)، ولا شكّ أنّ هذه الاتجاهات عُرفت في التراث اللغوي العربي بشكل أو بآخر، من هنا كان حرصنا على بيان مدى استثمار المفاهيم التي جاءت بها اللسانيات في التراث العربي من خلال محاولة الكشف عن الملامح اللسانية عند عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز".

لقد تصدى الجرجاني بفلسفته البيانية للأوضاع السائدة من المناداة بالانصراف عن النحو، فحاول إثبات قيمته وفعاليته بتبيين خصائصه وإبراز الحاجة إليه في الكلام، متوسلا بنظرية النظم للاستدلال على إعجاز القرآن الكريم، ومن المعلوم بداهة أنّ هذا الكتاب – بشهادة معظم الباحثين– يمثل عصارة الفكر النحوي لما يتضمنه من قضايا ومسائل، يقول تمام حسان: «أجدني مدفوعا إلى المبادرة بتأكيد أنّ دراسة عبد القاهر الجرجاني للنظم وما يتصل به تقف بكبرياء كتفا إلى كتف مع أحدث النظريات اللغوية في الغرب، وتفوق

معظمها في مجال فهم طرق التركيب اللغوي هذا مع الفارق الزمني الواسع الذي كان يبغي أن يكون ميزة للجهود المحدثة على جهد عبد القاهر»[1]، فهل يمكن وصف آراء عبد القاهر الجرجاني باللسانية؟ وبأنه لساني صاحب نظرية؟.

1. ملامح الدرس البنيوي في دلائل الإعجاز:

تقوم البنيوية على كشف العلاقات النظامية الصورية بين الوحدات اللغوية، و قد تجلى منهجها اللساني من خلال مجموعة من المبادئ أهمّها:

- **تحديد وظيفة اللغة.**
- **مفهوم العلامة.**
- **العلاقات التركيبية والاستبدالية.**
- **مفهوم النظام.**

انطلاقا من هذه المبادئ التي ارتكزت عليها البنيوية في دراسة اللغة يمكن التساؤل عن الجوانب البنيوية في نظرية النظم، فأين تتمظهر ملامح الدرس البنيوي في دلائل الإعجاز؟.

– تحديد وظيفة اللغة:

اعتبر سوسير اللغة مؤسسة اجتماعية، ومن ثمّ فقد كان من أهمّ المبادئ التي ارتكز عليها الدرس البنيوي "وظيفة اللغة" باعتبارها أداة التواصل والتبليغ والإفصاح، هذا التوجه لم يكن غائبا عن ذهن عبد القاهر الجرجاني، بل أقرّه منذ الوهلة الأولى– في نصوص كثيرة– حين أكّد أنّ وظيفة اللغة هي "نقل ما يقصده المتكلم للسامع"[2]؛ فاللغة سواء أكانت إلهاما أم تواضعا إنما الغرض منها التواصل، ذلك «أنّ الناس إنما يكلّم بعضهم بعضا ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده»[3]، كما نجده يلحّ على هذه الوظيفة بقوله: «وجملة الأمر أنّ الخبر وجميع الكلام معانٍ ينشئها الإنسان في نفسه، ويصرّفها في فكره، ويناجي بها قلبه ويرجع فيها عقله وتوصف بأنها مقاصد وأغراض».[4]

ويقول أيضا: «قد أجمع العقلاء أنّ العلم بمقاصد الناس في محاوراتهم علم ضرورة»[5] ويقول في سياق آخر: «فاعلم أنّ أغراض الناس تختلف في ذكر الأفعال المتعدية فهم يذكرونها تارة ومرادهم أن يقتصروا على إثبات المعاني التي اشتقت منها

للفاعلين من غير أن يتعرض لذكر المفعولين»[6]، فاستعمال اللغة يرتبط ارتباطا وثيقا بأدائها التواصلي المتمثل في تلك المقاصد والأغراض التي يؤمّها المتكلم من السامع، وعليه فإنّ وظيفة اللغة الرئيسية إحداث التواصل بين أطراف الخطاب بصورة واضحة مادام هناك معنى يحاول المتكلم نقله إلى السامع.

- مفهوم العلامة:

العلامة كما يعرفها سوسير كيان نفسي ذو وجهين: التصور ويضع له مصطلح (المدلول) والصورة السمعية ويضع لها مصطلح (الدال)[7]، يؤلف بينهما اعتباطا؛ أي إنّ العلاقة بين الدال والمدلول ليست معللة إنما يمثل الدال اختيارا صوتيا جزافيا تواضع عليه أهل اللغة الواحدة للدلالة به على مدلول معين .

هذا ما أوضحه الجرجاني حين تناول قضية اللفظ والمعنى حيث أوجب ضرورة تلازمهما(اللفظ والمعنى) حتى لا يمكن الاستغناء عن أحدهما، ولا ترجع مزية ولا فضل إلاّ بتوفرهما جنبا إلى جنب ومما يؤكّد تلك العلاقة القائمة بين عنصري العلامة(اللفظ والمعنى) قوله: «... فلو أنّ واضع اللغة كان قد وضع (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدّي إلى فساد»[8].

إنّ الجرجاني يتفق مع سوسير–إن صحّ التعبير– في كون أوضاع اللغة؛ أي إنّ علاقة دوال اللغة بمدلولاتها جزافية، ف «الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم تُوضع لتُعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يضمّ بعضها إلى بعضها، فيُعرف فيما بينها فوائد»[9]، مؤكدا أنّا إن زعمنا أنّ تلك الألفاظ إنما وضعت لتعرف بها معانيها في أنفسها لأدّى ذلك إلى ما لا يشكّ عاقل في استحالته، وهو أن يكونوا قد وضعوا للأجناس الأسماءَ التي وضعوها لها لتعرفها بها، حتى كأنهم لو لم يكونوا قالوا: (رجل) و(فرس)، و(دار)، لما كان يكون لنا علم بمعانيها[10].

وهكذا فإنّ الجرجاني قد فصل–في وقت مبكر– بين علاقة الكلم بالمعاني الدالة عليها، على أساس مواضعة أهل اللغة الواحدة، أو قصد التواطؤ كما عبّر عنه رضي الدين الأسترابادي، لا لشيء غيره.

- العلاقات التركيبية و الاستبدالية:

انتبه سوسير إلى المحورين الأساسين الذين تقوم عليهما العلاقة بين العلامات اللغوية، وهما محورا العلاقات التركيبية، والعلاقات الاستبدالية، وحدّد بإزاء ذلك وظيفة كلّ منهما؛ فالأولى تلك العلاقات من حيث هي "مبنية على صفة اللغة الخطية تلك الصفة التي لا تقبل إمكانية لفظ عنصرين في آن واحد"[11]، أما الثانية فتحقق وظيفتها ضمن إدراك الترابط الذهني الحاصل بين العلامات اللغوية والعلامات التي يمكن أن تحلّ محلّها وهذا ما أشار إليه الجرجاني من خلال حديثه عن نظم الحروف والكلم؛ إذ يميز في العلاقات التركيبية بين مستويين:

أ. مستوى الحروف: ويمتاز بالبساطة، يقول: «ذلك أنّ نظم الحروف تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن معنى»[12]، فيربط العلاقات التركيبية بتلاؤم الحروف وتعديل مزاجها حتى لا تثقل على اللسان، ومن الأمثلة التي لم يراع فيها العلاقات التركيبية قول الشاعر:

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرِ ❖ وَقُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

وقول الآخر:

لَمْ يَضِرْهَا –وَالحَمْدُ لِلَهِ– شَيْءُ ❖ وَانْثَنَتْ نَحْوَ عَزْفِ نَفْسٍ ذَلُولٍ[13].

فحين تضطرب العلاقات التركيبية على مستوى الحروف من حيث التلاؤم والتنافر فإنّ ذلك مدعاة للذهاب بانتظامية اللغة.

ب. مستوى الكلم: ويميز نوعين، يقول: «أما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفي آثار المعاني وترتبها على حسب ترتب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء للشيء كيف جاء واتفق»[14].

فالكلم قسمان: مؤتلف: وهو الاسم مع الاسم، والفعل مع الاسم، وغير مؤتلف: وهو ما عدا ذلك، كالفعل مع الفعل، والحرف مع الحرف[15]، وهنا تتدخل العلاقات التركيبية، فالأول خاضع لقواعد النحو، والثاني يتجاوز المستوى اللغوي إلى غيره، ومن الأمثلة قوله: «وإن أردت أن ترى ذلك عيانا فاعمد إلى أيّ كلام شئت وأزل أجزاءه عن مواضعها وضعها وضعا يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فيها، فقل في: (قفا نبك

من ذكرى حبيب ومنزل)، (من نبك قفا حبيب ذكرى منزل) ثم انظر هل يتعلق منك فكر بمعنى كلمة منها»[16].

ومن الأوّل (المؤتلف) يذكر أمثلة على الرغم من خضوعها للمبادئ النحوية إلاّ أنها لا تلتزم بصحّة النظم منها قول الشاعر:

وَمَا مِثْلُهُ فِي الناسِ إِلاَّ مُمَلَّكًا ❖ أَبُو أُمهِ أَبُوهُ حَيٌّ يُقَارِبُه

وقول الآخر:

وَلِذَا اسْمُ أَغْطِيَةِ العُيُونِ جُفُونُهَا ❖ مِنْ أَنهَا عَمَلُ السُّيُوفِ عَوَامِلُ[17]

فالحكم على الكلام بالفصاحة وغيرها مشروط بمراعاة العلاقات التركيبية من خلال توخي معاني النحو إذ لا تجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، وإنما تجب لها موصولة بغيرها ومعلقا معناها بمعنى ما يليها [18].

وعلى قدر اهتمام الجرجاني بالعلاقات التركيبية بمختلف مستوياتها يتعرض للعلاقات الاستبدالية –بوجه عام– من خلال حديثه عن تعدّد الصور والمعنى واحد؛ فقد تكون بعض هذه الصور باهتة أو بديعة مستدلا بأنّ "من شأن المعاني أن تختلف عليها الصور، وتحدث فيها خواص ومزايا من بعد أن لا تكون "[19].

فلا يكفي إذن أن نستبدل كلمة بأخرى –كما هو الشأن في بيت الحطيئة–:

دَعِ المَكَارِمَ لاَ تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا ❖ وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَّاسِي

ذَرْ المَفَاخِرَ لاَ تَذْهَبْ لِمَطْلَبِهَا ❖ وَاجْلِسْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الآكِلُ اللاَّبِسُ

حتى نرجع المزية والفضل إلى أحدهما دون الآخر بل يصنع معنى ويبدعه لا كما يسميه الجرجاني (سلخا) يقول: «وما كان هذه سبيله، كان بمعزل من أن يكون به اعتداد، وأن يدخل في قبيل ما يفاضل فيه بين عبارتين، بل لا يصحّ أن يجعل ذلك عبارة ثانية، فكما لا تكون الفضة أو الذهب خاتما، أو سوارا أو غيرهما من أصناف الحلي بأنفسهما، ولكن بما يحدث فيهما من الصورة، كذلك لا تكون الكلم المفردة»[20].

لقد نحا الجرجاني بالعلاقات الاستبدالية منحى يتجاوز المعيارية؛ فلا يقتصر على استبدال لفظ بآخر "حتى يكون حكمُ البيتين أو العبارتين حكمَ الاسمين قد وضعا في اللغة

لشيء واحد كالليث والأسد مثلا، وإنما قد يمتزج معنى البيتين أو العبارتين ثم يفترقا بخواص ومزايا وصفات، كالخاتم والخاتم، والشّنف والشّنف، والسّوار والسّوار، وسائر أصناف الحلي التي يجمعها جنس واحد، ثم يكون بينهما الاختلاف الشديد في الصنعة والعمل"[21].

ما يبرر اهتمام الجرجاني بالعلاقات التركيبية والاستبدالية وصفهما مقياسين للنظم، ذلك أنّ مراعاة هذين الجانبين هو ما يمنح هذا النظم أو ذاك صحته أو لا، ثم ينبني عليهما ترتيبه بحسب المزية والفضل ثانيا، فالنظم هو مجموعة العلاقات التركيبية والاستبدالية، وليس مجرّد رصف للألفاظ كيف ما جاء واتفق.

– مفهوم النظام:

سعى سوسير في لسانياته إلى كشف النظام الذي تحتكم إليه اللغة، أيّ لغة، وهو نظام معقّد ينبغي تحليل تعقدّه وتنظيمه في آن واحد[22]، ومبدأ انتظامية اللغة لم يكن غائبا عن فكر الجرجاني حيث نجد الكثير من النصوص التي تؤكّد إدراكه لمفهوم النظام إدراكا دقيقا من خلال تشبيهه بالبناء تارة، وبالنسج أخرى وبالسبك ثالثة.

يقول: «ولا يكفي أن تقولوا إنه خصوصية في كيفية النظم، وطريقة مخصوصة في نسق الكلم بعضها على بعض، حتى تصفوا تلك الخصوصية وتبينوها وتذكر لها أمثلة... كما يذكر لك من تستوصفه عمل الديباج المنقش ما تعلم به وجه دقة الصنعة، أو يعمله بين يديك حتى ترى عيانا كيف تذهب تلك الخطوط وتجيء؟ وماذا يذهب منها طولا وماذا يذهب منها عرضا؟ وبم يبدأ، وبم يثني، وبم يثلث؟ وتبصر من الحساب الدقيق، ومن عجيب تصرّف اليد، ما تعلم منه مكان الحذق وموضع الأستاذية»[23]، فهندسة البناء، ودقة الحساب، وجودة السبك عمليات شبيهة بعمل نظم الكلام.

وعلى هذا يشترط الجرجاني «أن تكون معرفتك معرفة الصانع الحاذق الذي يعلم علم كلّ خيط من الأبريسم الذي في الديباج، وكلّ قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطع، وكلّ آجرة من الآجر الذي في البناء البديع»[24]، وذلك إنما محصوله «أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ويشتدّ ارتباط ثانٍ منها بأوّل، وأن تحتاج في الجملة أن تضعها في النفس وضعا واحدا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه هاهنا في حال ما يضع بيساره هناك، نعم وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين» [25].

فصناعة الكلام ترتبط بمعرفة موقع كلّ كلمة في العبارة واتصالها بصاحبتها حتى لا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى ويستفاد معناه (معنى الكلام) من مجموع مداليل تلك الألفاظ مضموما بعضها إلى بعض، "فيصنع في الكلم ما يصنعه الصانع حين يأخذ كسرا من الذهب فيذيبها ثم يصبّها في قالب ويخرجها لك سوارا أو خلخالا، وكذلك قطْع بعض ألفاظ العبارة عن بعض كمن يكسر الحلقة ويفصم السوار"[26].

وهكذا نلحظ أنّ الجرجاني على وعي تام بمفهوم النظام وكيفية عمله وأصوله الدقيقة، يقول بناني: «لا نعتقد أنّ الدراسات اللسانية القديمة والحديثة فكّرت في مثل هذا التصور العجيب الذي يجمع بين البناء اللساني والبناء بالآجر عند رصف اللبنات ورصّها في اتجاه أفقي وإعلائها في اتجاهها العمودي»[27].

2. ملامح الدرس التوليدي التحويلي في دلائل الإعجاز:

اتخذت التوليدية التحويلية بزعامة تشومسكي هدفها الأول تحصيل الملكة، ذلك أنّ قدرة اللغة الإنسانية غير المحدودة تجعل الفرد قادرا على إنتاج عدد من الجمل غير محدود تكوينا وفهما وهذا لا يتأتى إلاّ للملكة الإنسانية، فلا يُكتفى في بحث اللغة بالوصف المجرّد والتصنيف النموذجي لوحدات اللغة وتحديدها داخل نظامها بل مجاوزة ذلك إلى الاهتمام بكيفية حدوث اللغة منتقلة من الموجود بالقوة (اللغة) إلى الموجود بالفعل(الكلام)؛ أي الكشف عن الحركية الداخلية للغة التي بإمكانها أن تُفسّر –ضمن عملية التبليغ اللغوي– سرّ الطاقة الإبداعية الخلاّقة عند الفرد المتكلم الذي لم يعد لدى التوليديين مجرّد مستقبل للغة يخزّنها في ذاكرته بكيفية سلبية[28] .

لقد نظر التوليديون إلى اللغة لا باعتبارها سلوكا آليا –كما فعل البنيويون–، وإنما هي نظام عقلي إبداعي وبذلك اختلفت النظرة إلى اللغة من كونها نوعا من أنواع السلوك إلى كونها نظاما معرفيا عقليا، ويتضح هذا الاتجاه من خلال مجموعة من المبادئ:

- التفسير العقلي والرياضي للغة.
- ثنائية البنية العميقة والسطحية.
- قواعد التوليد والتحويل.
- خاصية الإبداعية في اللغة.

انطلاقا من هذه المبادئ التي ارتكزت عليها التوليدية التحويلية في دراسة اللغة بحثا عن الملكة يمكن التساؤل عن الجوانب التوليدية التحويلية في نظرية النظم، فأين تتمظهر ملامح الدرس التوليدي التحويلي في دلائل الإعجاز؟.

- التفسير العقلي و الرياضي للغة:

حاول تشومسكي دارسة اللغة دراسة رياضية قوامها العقل وما ينطوي ضمنه من حقائق فانطلق في ممارسة استنتاجاته باعتماد الاستلال الرياضي الذي يتعامل مع اللغة في ظل ما تقتضيه قوانينها الداخلية، متأثرا بديكارت وهمبوليت في دراستهما الذهنية.

وإذا ما حاولنا استنطاق نصوص الجرجاني وجدناه يُرجع النظم إلى سلطةِ العقل، يقول: «ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالاتها، وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل»[29]، وترتّبِ المعاني في النفس، يقول: «...هذا وأمر النظم ليس شيئا غير توخّي معاني فيما بين الكلم، وأنك ترتب المعاني في نفسك أولا ثم تحذو على ترتيب الألفاظ في نطقك»[30]، وإعمالِ الفكر والروية، يقول: «أنك تتوخى الترتيب في المعاني وتُعمل الفكر هناك»[31]، فلا يتأتى لنا نظم الكلام من غير روية وفكر، ذلك أنّ طريق معرفته العقل من حيث اختيار مكوناته وتناسق دلالاته .

إنّ نظم الكلام مشروط بما يقتضيه العقل، فيتدخل في عمليات التأليف والترتيب والتنسيق وبهذا يكون الجرجاني من السبّاقين إلى ربط إنتاج العبارة بمقتضى العقل، مما جعل حسام البهنساوي يؤكّد فكرة التفسير العقلي للغة عنده بقوله: «لم تكن فكرة التفسير العقلي للغة وقواعدها بعيدة عن إدراك عبد القاهر ووعيه فلقد نحا بالقواعد منحى عقليا شأنه في ذلك شأن النظرة التوليدية الذي تؤكد أنّ الشغل الشاغل هو تحديد صيغة القواعد اللغوية التي تمثل ذلك النظام الذهني»[32].

- البنية السطحية و العميقة:

حدّد تشومسكي مستويين للجملة؛ مستوى سطحي يتعلّق بظاهر تركيب الكلام صوتا وصرفا ومستوى عميق؛ فالبنية السطحية تمثل الجملة كما هي مستعملة في عملية التواصل؛ أي في شكلها الفيزيائي بوصفها مجموعة من الأصوات والرموز، أما البنية العميقة فهي شكل تجريدي داخلي يعكس العمليات الفكرية، ويمثل التفسير الدلالي الذي تشتق منه البنية السطحية من خلال سلسلة من الإجراءات التحويلية[33].

وهذا ما عبّر عنه الجرجاني بـ (المعنى)، و(معنى المعنى)، أو بأصل المعنى وبين ما هو زيادة في المعنى، يقول: «فهاهنا عبارة مختصرة، وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، ومعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذاك المعنى إلى معنى آخر»[34].

من خلال هذا التحديد أدخل الجرجاني الكناية والمجاز والاستعارة ضمن النمط الأول (البنية السطحية) عاكفا على شرح الأمثلة والتعليق عليها من أجل الوقوف على مدارك الإعجاز؛ أي إنّ تحصيل الفهم يتحقّق سواء عن طريق اللفظ وحده (المعنى الصريح) أم بالانتقال إلى دلالات أخرى لا تُستقى من اللفظ المذكور وإنما تحيل عليه، ومن الأمثلة تحليله العبارة الآتية: "أمّا بعد: فإني أراك تقدّم رِجْلاً وتؤخرّ أخرى..."، فالمعنى هو: التردّد بين الأمرين وترجيح الرأي فيهما، وهذا المعنى لا يُعرف من لفظ (التقديم والتأخير) أو من لفظ(رِجْل) لكن يكون ذلك من المعاني الحاصلة من مجموع الكلام التي هي أدلة على الأغراض والمقاصد، ومن الأمثلة أيضا تحليله قوله تعالى: ﴿واشتعل الرأس شيبا﴾ [مريم4] انطلاقا من وصف بنيتها العميقة (الأصلية) اشتعل شيب الرأس... وغيرها .

وهكذا يبين الجرجاني طرق أداء المعنى من جهتين مباشرة وغير مباشرة مع ربطها بمراتب الفضل والمزية، فقد تكون العبرة تارة بظاهر اللفظ، وأخرى بمعانٍ باطنة، فتتحدّد الدلالة ويُعلم وجه الفصاحة.

- قواعد التوليد والتحويل:

اتسمت هذه القواعد عند تشومسكي بطابعها الاختياري؛ أي إنّ التركيب الواحد يمكن تحويله إلى عدّة تراكيب في المستوى السطحي، مع بقاء المعنى واحدا (بدائل أسلوبية)، وتشمل العناصر الإضافية التحويلية الإفراد والجمع، والزمان، والأفعال المساعدة، وصيغة المبني للمعلوم والمجهول...إلخ.

وبالعودة إلى دلائل الإعجاز نجد الجرجاني قد أحاط بهذه القواعد مقرّرا أنّ الزيادة في المبنى تؤول إلى زيادة في المعنى، ذلك أنّ "كلما زدت شيئا وجدت المعنى صار إلى آخر"[35] محدّدا تلك القواعد من خلال فكرة "الوجوه والفروق" التي طغت على مباحثه .

فـ "الوجوه "هي تلك التعبيرات المختلفة أو الطرق المتعددة التي يحتملها الباب

النحوي الواحد لتأدية غرض ما، يقول سليمان بن علي: « فالوجوه ليست إلاّ بدائل أو هيئات مختلفة لمعنى واحد من معاني النحو حيث يكون لكلّ وجه أو هيئة معنى دلالي خاص لا يكون في غيره من الوجوه أو الهيئات بعد أن تكون حقيقة المعنى أو أصله في جميعها واحدة»[36]، أما "الفروق" ف « عبارة عن خواص من معاني تظهر في كلّ وجه دون غيره من الوجوه وعلى الناظم أو منشئ الكلام أن يتخير البديل أو الوجه الأصلح للتعبير بدقة عما يريد إبلاغ السامع به»[37]

لكن بالوقوف على فكرة البدائل وما تحيل إليه من عشوائية الانتقال من معنى إلى آخر نجد الجرجاني يتجاوز كونها مجرّد بدائل أسلوبية بوضع قوانين تحكمها ذلك أنّ استعمال كلّ وجه مرتبط بأغراض معينة تختلف عن غيرها، يقول مبينا أثر الفروق والوجوه في صحّة التركيب واستقامته: «...وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كلّ باب وفروقه فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق وينطلق زيد، وفي الشرط والجزاء... ويتصرف في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار، والإضمار والإظهار، فيصيب بكلّ من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحّة وما ينبغي له»[38].

إنّ ما يقوم به الجرجاني من تعداد الوجوه التي يأتلف منها الكلام، وذكر الفروق المتفاوتة يحيل إلى قواعد التوليد والتحويل التي أشار إليها تشومسكي، وهذا يعني دقة نظره و التفاته إلى ما لم يلتفتوا إليه من استصحاب كيفية أداء المعنى بتراكيب مختلفة، فتختلف الصور لاختلاف المعاني.

- <u>الإبداعية في اللغة:</u>

يعرّف تشومسكي اللغة على أنها عملية توليدية فعالة في الذهن البشري تبرز مهارة الإنسان في استعمال اللغة من جهة، وقدرته على استخدام جمل جديدة لم يسبق أن استخدمها غيره من قبل من جهة ثانية؛ فاللغة ذات خاصية إبداعية تسمح للمتكلم بالتوسع واختيار ما لا يمكن حصره.

"ويكاد عبد القاهر وتشومسكي يتفقان في أنّ المتكلم يمتلك قدرة لغوية – أتيحت له عن طريق النحو – تسمح بتوليد عبارات لا نهائية" .

إنّ الجرجاني يربط فكرة الإبداعية بمبدأ الوجوه والفروق، يقول:«اعلم أنّ الفروق

والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازديادا بعدها»[39]، فالمتكلم من خلال الوجوه والفروق التي تتمثلها التراكيب يختار ما يؤدي الغرض والمقصود، مما يؤكد اتساع اللغة وحركيتها.

3. ملامح الدرس التداولي في دلائل الإعجاز:

إنّ تأكيد تشومسكي على ضرورة اعتبار اللغة مقدرة عقلية موجودة قبلا في ذهن الإنسان والإشارة إلى قصور التحليل البنيوي من حيث اكتفاؤه بالوصف دون التفسير، ومن ثمّ البحث عن "الكفاءة" التي يمتلكها "المتكلم السامع المثالي" دون الأداء الواقعي للمتكلم الحقيقي قد جعل منها دراسة شكلية تكتفي في دراسة اللغة بوصفها بنية مستقلّة بذاتها لا تعير للمستعملين أيّ اهتمام مما مهّد الطريق إلى ظهور اتجاه ثالث يدرس اللغة لا من حيث هي بنية مغلقة وإنما انطلاقا من استعمالها الفعلي.

لقد عُنيت التداولية بدراسة مقاصد المرسل، وكيف يستطيع أن يبلّغها في مستوى يتجاوز مستوى دلالة المقول الحرفية، كما يُعنى المنهج التداولي بكيفية توظيف المرسل للمستويات المختلفة في سياق معين حتى يجعل إنجازه موائما لذلك السياق، وذلك بربط إنجازه اللغوي بعناصر السياق الذي حدث فيه ومنها ما هو مكون ذاتي مثل: مقاصد المتكلم ومعتقداته، وكذلك اهتماماته ورغباته، ومنها أيضا المكونات الموضوعية، أي الوقائع الخارجية مثل: زمن القول ومكانه وكذلك العلاقة بين طرفي الخطاب[40].

فالتداولية تربط بين العناصر اللغوية والعناصر غير اللغوية التي ينجز فيها الحدث الكلامي، فلم تهمل الأشخاص المتكلمين، ولم تقص الكلام، فهذه العناصر من صميم بحثها، وكذا لم تهمل السياق والظروف والملابسات، فالمبدأ العام الذي تقوم عليه هو "الاستناد إلى الواقع الاستعمالي من أجل تفسير الظواهر اللغوية"، وذلك من خلال توظيف مبدأين هامين في تحليل اللغة:

أ. القصدية: تتجلّى بالخصوص في الربط بين التراكيب اللغوية ومراعاة "غرض المتكلم وقصده" العام من الخطاب .

ب. السياق العام: فالجمل تُنطق ضمن سياقات معينة سواء سياق الحال أم السياق الثقافي وأنّ جزءا هاما من الدلالات اللغوية يُستمدّ من السياق الذي يُنتج فيه[41].

فإلى أي مدى كان عبد القاهر الجرجاني تداوليا؟ وما مدى التفاته إلى المعطيات التداولية في توضيح المعنى؟.

ربط الجرجاني بين معاني النحو الناشئة عن تعلّق الكلم بعضها البعض والأغراض والمقاصد التي يصدر عنها الكلام إذ " لفت النظر بدقة إلى حسن العلاقة بين رصف الكلام الخارج من فم الناطق، وبين علم النحو وصنعة الإعراب، ووجّه الانتباه إلى ما يحسن في مقامه، ولا يحسن في مقام آخر من القول، وكيف يكون استخدام الواحد من أساليب الكلم ناجحا معبّرا في موقف، وفاشلا عييّا في موقف ثانٍ"[42] .

فصناعة الكلام بحث يقتفي آثار المعاني، ورصد الأغراض والمقاصد، ومراعاة السياق بما يشتمل عليه من ظروف وملابسات وهذا ما أوضحه يقوله: «...وإذا نظرتم في الصفة مثلا فعرفتم أنها تتبع الموصوف، وأنّ مثالها قولك:(جاءني رجلٌ ظريفٌ) و(مررت بزيدٍ الظريفِ)، هل ظننتم أنّ وراء ذلك علما، وأنّ هاهنا صفة تخصّص وصفة توضّح وتبيّن، وأنّ فائدة التخصيص غير فائدة التوضيح، كما أنّ فائدة الشّياع غير فائدة الإبهام، وأنّ من الصفة صفة لا يكون فيها تخصيص ولا توضيح، ولكن يُؤتى بها مؤكّدة كقولهم:(أمس الدابرُ)، وكقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾[الحاقة 13] وصفة يُراد بها المدح والثناء كالصفة الجارية على اسم الله تعالى جدّه»[43].

فلا يكتفي في بيان الصفة أنها تابعة للموصوف من حيث الشكل(الإعراب) وإنما يتجاوز ذلك ببيان الأغراض والمساقات التي يُؤتى بالصفة من أجل تأديتها كالتوضيح، والتخصيص، والتأكيد والمدح...وغيرها.

لقد ألحّ الجرجاني على استجلاء المقاصد المضمّنة في التركيب اللغوي مؤكّدا ضرورة معرفة السياقات المختلفة؛ إذ إنّ كلّ صورة من الصور تؤول –في حقيقة الأمر– إلى الدواعي والحاجات التي تخالج نفس المتكلم؛ فيفصل بين نفي وإثبات... وغيره، أو بمعنى آخر تتصل اتصالا وثيقا بغرض المتكلم من وراء إيراد خطابه إلى السامع، ومقتضياتِ الخطاب التي من شأنها التأثير على طبيعتها(الصور)؛ فالأعرابي الذي حين سمع المؤذن يقول: (أشهد أنّ محمدًا رسولَ الله) بالنصب أنكر وقال: ماذا صنع ؟ أنكر عن غير علم أنّ النصب يخرجه عن أن يكون خبرا، ومن ثمّ يحتاج إلى ما يُتمم المعنى ويحقّق فائدة الإخبار حتى يكون كلاما[44].

إنّ المقاصد الكامنة في نفس المتكلم إنما يتمّ التعبير عنها بأساليب مخصوصة على هيئة مخصوصة تُدرك بالفطرة والسّليقة، مما يجعلنا نقرّ بأنّ الكشف عن هذه المقاصد والبحث في معانيها الدّالة عليها، ومدى تأثيرها في المخاطب، و الإحاطة بكلّ العناصر اللغوية وغير اللغوية من الأمور الهامة التي تستدعي تحصيلها سواء على مستوى تحصيل الفهم "فقد أجمع العقلاء على أنّ العلم بمقاصد الناس في محاوراتهم علم ضرورة"، وبهذا تتحقّق غاية الإفهام، ذلك أنّ "الناس إنما يكلّم بعضهم بعضا ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده"[45] من جهة أم على مستوى تحليل الجملة نحويا تحليلا صحيحا بمراعاتها من جهة أخرى .

وبهذا يكون الجرجاني قد ميّز بين شكل التركيب أو بنيته والمعنى الذي تؤدّيه، مراعيا في ذلك كلّ ما يطرأ عليه من زيادة أو نقصان مما شأنه أن يغيّر حاصل المعنى، فالمعنى يُعتبر المادة الأساسية في الحدث الكلامي والألفاظ هي "خدم المعاني والمصرّفة في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستها، المستحقّة طاعتها فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنّة الاستكراه وفتح أبواب الغيب والتعرّض للشين"[46] .

ويورد لإثبات ذلك قصة الكندي وما توهمه من حشو في كلام العرب: "روي عن ابن الأنباري أنه قال: ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشوا! فقال له أبو العباس: في أيّ موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: (عبد الله قائم) ثم يقولون: (إنّ عبد الله قائم) ثم يقولون: (إنّ عبد الله لقائم)، فالألفاظ متكرّرة والمعنى واحد .فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم:(عبد الله قائم)، إخبار عن قيامه، وقولهم:(إنّ عبد الله قائم)، جواب عن سؤال سائل، وقولهم: (إنّ عبد الله لقائم) جواب عن إنكار منكرٍ قيامَه، فقد تكرّرت الألفاظ لتكرّر المعاني"[47] .

ذلك أنّ اختلاف الألفاظ تابع لاختلاف المعاني التي يريد المتكلم إيصالها السامع، وكيف يُتصوّر فهم عبارة ما دون معرفة الأغراض والمقاصد المتضمّنة فيها والدالة على مدلولها الصحيح . فتلتحم كلّ هذه العناصر لإعطاء المعنى وجهته المنوطة به .

لقد حاول الجرجاني التنبيه على أثر المعطيات السياقية في إنتاج التراكيب اللغوية

مبينا دور المتكلم وما يستتبعه من أغراض ومقاصد، إلى جانب ملاحظة حال السامع وهيأته ...وغيره من خلال التطبيقات المختلفة في الأساليب اللغوية ك (التقديم والتأخير، والنفي والإثبات ...وغيرها) مما يؤكّد البعد التداولي في دلائل الإعجاز .

وبعد كشف أوجه المقاربة بين اللسانيات الحديثة وكتاب الدلائل؛ يمكن القول بأنّ الجرجاني – في كثير الأحيان– قد كان سباقا إلى طرح بعض القضايا التي تتناولها اللسانيات الحديثة، ولم تفصل فيها بعد، على الرغم من أنها لم تكن الغاية المقصودة، فكثير من المبادئ على تنوع اتجاهاتها قد ضُمنت كتابه مما جعل البعض (أحمد المتوكل) يصف الكتاب بشمولية التوجهات اللسانية، وبأنه يمثل اتجاها متطورا في علم اللغة العام الحديث، ذلك لأنه يجمع في نظرية واحدة (النظم) أغلب الاتجاهات اللغوية الحديثة.

الهوامش

[1] تمام حسان– اللغة العربية معناها ومبناها– عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط3 (1998)، ص18.

[2] حماسة عبد اللطيف – النحو والدلالة – دار الكويت، الكويت، ط1، ص 152.

[3] عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – اعتنى به علي محمد زينو، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1(1426هـ – 2005م)، ص 386.

[4] المصدر نفسه، ص 375.

[5] المصدر نفسه، ص 386.

[6] المصدر نفسه، ص 126.

[7] الطيب دبة– مبادئ اللسانيات البنيوية – دار القصبة للنشر، الجزائر، ط 1 (2001)، ص 77.

[8] عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – ص54.

[9] المصدر نفسه، ص 386.

[10] المصدر نفسه، ص 393.

[11] الطيب دبة – مبادئ اللسانيات البنيوية – ص 89.

[12] عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – ص54.

[13] المصدر نفسه، ص59.

[14] المصدر نفسه، ص 54.

[15] المصدر نفسه، ص336.

[16] المصدر نفسه، ص298

[17] المصدر نفسه، ص 78.

[18] المصدر نفسه، ص 291.

[19] المصدر نفسه، ص345.

[20] المصدر نفسه، ص 350 (بتصرّف).

[21] المصدر نفسه، ص 369 (بتصرّف).

[22] الطيب دبة – مبادئ اللسانيات البنيوية – ص50.

[23] عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – ص46.

[24] المصدر نفسه، ص 47.

[25] المصدر نفسه، ص 85.

[26] المصدر نفسه، ص300 (بتصرّف).

[27] محمد صغير بناني – المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة – دار الحكمة، الجزائر، ط (2001)، ص 35.

[28] الطيب دبة – مبادئ اللسانيات البنيوية – ص 31.

[29] عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – ص 54.

[30] المصدر نفسه، ص 327.

[31] المصدر نفسه، ص 57.

[32] حسام البهنساوي – أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث – مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، مصر، ط 1 (1994)، ص 31.

[33] أحمد مومن –اللسانيات النشأة والتطور– ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط (2001)، ص212.

[34] عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – ص 200.

[35] عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – ص389.

[36] سليمان بن علي – صلة النحو بعلم المعاني لدى الإمام عبد القاهر الجرجاني من خلال مصطلح الوجوه والفروق في دلائل الإعجاز – مخطوط رسالة ماجستير، جامعة باتنة (2001)، ص38.

[37] حسن طبل –المعنى في البلاغة العربية– دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1 (1418ه 1998م) ص156.

[38] عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – ص 77.

[39] عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – ص 81.

[40] عبد الهادي بن ظافر الشهري – استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية – دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان ط1 (المقدمة viii).

[41] مسعود صحراوي – الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي – مخطوط رسالة دكتوراه، جامعة باتنة (2003– 2004)، ص69 /70 (بتصرّف).

[42] عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز– ص10(التقديم).

[43] المصدر نفسه، ص43.

[44] المصدر نفسه، ص 303 /304 (بتصرّف).

[45] المصدر نفسه، ص 386.

[46] عبد القاهر الجرجاني – أسرار البلاغة – اعتنى به ميسر عقاد ومصطفى الشيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ط1 (1425ه 2004م)، ص13.

[47] عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – ص 235.